صورة العربي في الأدب الأندلسي/ صورة آخر ملوك غرناطة
1487-1492 محمد الثاني عشر (أبو عبد الله)
(كما قدمه أنطونيو غالافيا في روايته المخطوط القرمزي ¹)

منير بن رحال

أستاذ التعليم العالي مساعد، المدرسة الوطنية للتجارة والتسيير بالجديدة
جامعة أبي شعيب الدكالي
Benrahal2@gmail.com

1. تمهيد لابد منه ،

ليس هناك من الباحثين، من لا يتذكر آخر سلاطين الأندلس محمد الثاني عشر (1460 - 1527)، المكنى بأبي عبد الله و الملقب بالصغير². فأغلب كتب التاريخ التي تناولت هذا الملك تدنيه لكونه ضيع ملك الأندلس، وهو ما دفعني إلى القيام بإعادة قراءة لهذه الشخصية، من خلال رواية (المخطوط القرمزي) لأنطونيو غالافيا، الذي يعتبر من أهم الأعلام الإسبانية، على كل المستويات. فهو في روايته هاته لا يقوم بعمل غير الترجمة، وهي نقطة أثارت اهتمامي، دفعتني إلى الاقتراب أكثر من هذا الكاتب الكبير. وإذا كان -التاريخ بصوغه ويكتبه المنتصرون-³، فإن

1 رواية المخطوط القرمزي ElManiscrito Carmesi لمؤلفها الكاتب أنطونيو غالافيا (1990) Antonio Gala

2 (أبو عبد الله) محمد الثاني عشر (1460 - 1527) هو محمد بن علي بن سعد بن علي بن يوسف المستعني بالله بن محمد بن يوسف بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن يوسف. من بني نصر أو بني الأحمر المنحدرة من قبيلة الخزرج الحظانية^[1]، حكم مملكة غرناطة في الأندلس فترتين بين عامي (1482 - 1483) وعامي (1486 - 1492). وهو آخر ملوك الأندلس المسلمين الملقب بـ:الغالب بالله. استسلم لفرديناند وإيزابيلا يوم 2 يناير 1492. وسماه الإسبان el chico (أي الصغير) وBoabdil (أبو عديل)، بينما سماه أهل غرناطة الزغابي (أي المشؤوم أو التعييس). وهو ابن أبو الحسن علي بن سعد، الذي خلعه من الحكم وطرده من البلاد عام 1482، وذلك لرفض الوالد دفع الجزية لفرناندو الثاني ملك أراغون كما كان يفعل ملوك غرناطة السابقين.

لقب بالصغير تمييزاً له عن عمه أبي عبد الله الملقب بالزغل الذي انتهى به المطاف بالجوع السياسي إلى وهران وتلمسان في الجزائر وتبعه (أبو عبد الله) هذا بعد مدة ليست بالكبيرة، ولكن إلى فاس بدلاً من تلمسان.

3 ظهرت أعمال روائية كثيرة عن فترة سقوط غرناطة، نذكر : منها رواية "ابن سراج" التي أفاد منها شاتوبريان الفرنسي في روايته القصيرة "آخر بني سراج" التي عرّبها أمير البيان شكيب أرسلان. وثمة رواية أخرى أقل تحيزاً كتبت باسم الحروب الأهلية في غرناطة Guerras Ciriles de Granada لمؤلفها بيريث دي ايتا Perez de Hita وهي رواية لا تخلو من بعض المغالطات ومن ذلك أنّ المؤلف يذكر سورة في القرآن الكريم باسم سورة السيف وهذا غير صحيح. وظهرت في القرن العشرين روايات إسبانية عديدة عن الأندلس. إحداها باسم زرياب لخويس جريوس (1987).

(كما قدمه أنطونيو غالاً في روايته المخطوط القرمزي)

أنطونيو غالاً ، مؤلف (المخطوط القرمزي) يرى عكس ذلك. فقد أراد أن يكتب تاريخ هذه الحقبة من المحنة الأندلسية في قالب قصصي يجمع بين الدقة والحياد الموضوعي والتخييل الذي يعني بما لم تذكره كتب التاريخ، واقتناص التفاصيل وجميعها من المصادر المختلفة ، ليركب منها نصاً تمتزج فيه شفافية الرواية، ومرجعية التأليف التاريخي، وغنى السيرة الذاتية بالتحليل والصراع النفسي الداخلي.

اعتمد (أنطونيو غالاً) ، طريقة الكاتب الضمني ، وهو أسلوب لكتابة "السيرة الذاتية" على لسان البطل، حيث أنه يشكل الأنا الثانية للكاتب الحقيقي⁴. لقد تخيل أنطونيو غالاً كاتباً ضمناً متماهياً في Wayne c Booth يشير شخصية آخر سلاطين الأندلس ، وجعل هذا المؤلف الضمني يواصل من خلال هذا الكتاب، كتابة يومياته أو مذكراته أو بكلمة أدق سيرته الذاتية. إن (غالاً) وهو المؤلف الحقيقي يتوارى وراء هذا المؤلف الضمني (السلطان)، فيعفي نفسه إعفاء تاماً من التدخل في السرد، بل إعفاء من المسؤولية التي قد تكلفه الكثير تاريخياً⁵. انطلاقاً من هذه المعطيات والملابسات ، سنبحث في كيفية تقديم (أنطونيو غالاً)، لهذه الشخصية التاريخية المثيرة للجدل .

كيف صور أنطونيو غالاً في الرواية طفولة عبد الله الأمير في قصر الحمراء؟ كيف تسلم العرش؟ و كيف سجن؟ وأخيراً ..كيف وقع معاهدة التسليم؟ هل كان المجرم أم كان الضحية؟

1. **الملخص العام للرواية :**

تبدأ الرواية بمقدمة قصيرة فيها بعض حقائق وبعض خيال. تتمثل الحقائق في أن بعثة فرنسية قامت بإجراء حفريات في فاس سنة 1931. وكان موقع هذه الحفريات في مبنى جامع القرويين بهدف التعرف على مخططاته وتصميمه الهندسي، وقد اكتشف المنقبون وجود زيادة في مساحة الأساسات تخالف المساحة المتوقعة، وبعد التحري عثر على غرفة كانت قد شيدت في أحد الأساسات. وفي تلك الغرفة أخفيت بعض المخطوطات التي منها هذا "المخطوط القرمزي" ؛ الذي يضم يوميات آخر سلاطين بني الأحمر. إن المؤلف يحاول جعل روايته حقيقة تاريخية، أكثر من ذلك ،يتوجه المؤلف الحقيقي (غالاً) بالشكر إلى المؤرخين والإخباريين الذين أسهموا في كتابة تاريخ هذه الحقبة بمن فيهم السلطان نفسه.

2. **أهم صور الملك في رواية (المخطوط القرمزي) لأنطونيو غالاً**

صورة أمير تحت إمرة أمه ضد أبيه .

تبتدئ الرواية بالإشارة إلى الزمن الذي بدأت فيه نهاية المؤلف الضمني باعتباره وريثاً لعرش غرناطة. ثم تعود بنا إلى مرحلة أسبق بحيث تروي لنا نشأة دولة بني نصر وإنجازات الأسلاف إلى أن تزوج والده من امرأة نصرانية اسمها الأصلي (إيزابيل)، ادعت الإسلام وتسمت (الثريا)، وأنجبت لوالده أبناء يناقسونه على العرش، فما كان من أمه السلطانة السابقة عائشة، إلا أن حرصته على أبيه وأوغرت صدره، وأقنعت أنه الوريث الشرعي للعرش. فأخذ يتطلع

وكتبت قصص وروايات عالمية عن غرناطة ، فكتب "واشنطن أرفنج" قصص الحمراء". وكتب طارق علي -باكستان- رواية أندلسية مهمة بعنوان "في ظلال الرمان" نسج فيها حكاية خيالية عن عائلة عربية من غرناطة سماها "بنو هديل" مزج فيها بين المتخيل السرد، والحقائق التي سجلتها لنا كتب التاريخ.

أما لمؤلفات المسرحية التي كتبت حول "فتح الأندلس" أو "صقر قريش" أو "طارق بن زياد" أو "غادة إشبيلية" أو "سقوط غرناطة" وغيرها من نماذج، ونصوص، كثيرة جداً.

وكثر الكتاب العرب الذي كتبوا القصص المستوحاة من أجواء الأندلس. ونشير هنا إلى مثال واحد فقط وهو رواية (غرناطة) لرضوى عاشور. فقد قامت المؤلفة قبل كتابة هذه الرواية بزيارة إلى "غرناطة" عاصمة الأندلس فتعرفت على شوارعها، وأحيائها ورياضها، وما فيها من عيون، وحدائق، وقصور ما تزال تحتفظ بنضارتها إلى اليوم. وقابلت بين ماضي المكان، وحاضره، عبر مئات الوثائق، وركبت من ذلك كله حبكة قصصية ذات نسيج درامي متين، يشد القارئ شداً، ويأسره أسراً^(*).

4 Wayne C. Booth ,Rhetoric of Fiction, published by University of Chicago Press 1961 ,p 72.

5 مثل هذا العمل المقترن بهاتيك الأهداف لا يستطيع أن يتصدى له إلا كاتب جمع إلى القدرة على التخييل والسرد المتدفق قدرة أخرى على استقصاء الحوادث وتفسير التاريخ ورؤية مالا يرى عبر مئات الآلاف من الصفحات التي سودتها أقلام المؤرخين، والأخبار التي روتها ألسنة الرواة والإخباريين، وهذا، فيما يبدو لنا، من النظر الأول، هو الذي يتصف به كاتب هذه الرواية. فعلى كثرة ما كتب عن هذه الحقبة بالعربية وغير العربية، ابتداءً ب(قصص الحمراء لواشنطن أرفنج) وانتهاء برواية (في ظلال الرمان لطارق علي) و(غرناطة لرضوى عاشور)، فإن هذه الرواية لجأت إلى طريقة في السرد لم يلجأ إليها كاتب آخر.

(كما قدمه أنطونيو غالبا في روايته المخطوط القرمزي)

لهذه المهمة في زمن تداعت فيه أركان الدولة النصرانية، وبدأ الإسبان يحتلون أجزاء المملكة ومدنها واحدة تلو الأخرى. في هذه الأثناء، ونظراً لكون أبي عبد الله هو أكبر أبناء السلطان، تقرر تعيينه ولياً للعهد. وقد شهد الأمير عرضاً أراد به أبوه إرهاب النصارى، وإظهار هيبة الأمة وأنها قوية، فتنشاء الأقدار أن تتغير أحوال الجوّ فجأة، فتعرض غرناطة (العاصمة) لفيضان وطوفان جعل قواها العسكرية والاقتصادية تتراجع إلى الوراء وتخسر كثيراً.

وقد كان يوم الطوفان علامة فارقة؛ إذ كل ما حدث بعد ذلك كان تقهقراً للخلف. وزاد الطين بلة الانقسام الذي حدث في صفوف الأسرة. فعمه أبو عبد الله (الملقب بالزغل) 6، انشق أيضاً وادعى أنه سلطان، والإسبان هاجموا (مالقة) واستولوا عليها بعد حصار مطول 7، اضطر فيه سكانها إلى التهام القطط والفئران والعيش على أوراق الشجر.

وأما هو، فقد شجعت أمه على الثورة وانتهاز فرصة خروج أبيه في غزوة فانقض على غرناطة، وعلى قصر الحمراء، واغتصب العرش، وشجعت أمه على غزو النصارى والانتصار عليهم، 8 ليكتسب بذلك مكانة شعبية في قلوب الغرناطيين، فيغدو السلطان المحبوب وينسى شعبه بذلك (أباه) المخلوع عن العرش.

صورة الملك (الأسير) لدى الإسبان ثم المطرود نهائياً

2.2

بعد استشارة السلطان (أبي عبد الله) لوزيره ابن كماشة الذي ساند في خلع السلطان الأب؛ قرر أن يغزو بلدة "اللسانة"، فلم تجر الرياح بما تشتهي السفن إذ وقع في هذه المعركة أسيراً. ولم يتعرف عليه الإسبان في بادئ الأمر، حيث اضطر للتخفي كأنه أسير عادي، حتى كانت الصدفة إذ تعرف عليه أسير آخر جاؤوا به إلى (قرطمة) حيث هو؛ فما كان من الأسير الجديد إلا أن خاطب أبا عبد الله بكلمة (مولاي)، ثم انكب على يديه يقبلهما فتعرف حراسه القشتاليون عليه، ليصبح صيداً ثميناً بيد النصارى.

يروي (أبو عبد الله) ذكريات الأسر، والرسام الذي قام برسم صورة له وهو مقيد اليدين، صورة ستبقى لقرون في ذاكرة الأجيال الإسبانية العربية الإسلامية وكأنها صورة نهاية الأندلس كلها، ثم يروي لنا بتفاصيل توثيقية مبالغ فيها، مفاوضات (الفدية) التي أثارت غيظ عمه (الزغل)، فاتهمه بالجن والخداع وبيع غرناطة مقابل حريته الشخصية. لكن شروط تحريره من الأسر لم تكن في حقيقة الأمر لصالحه إذ وضع ابنه (أحمد) رهينة بيد الإسبان لضمان الاتفاق، الاتفاق الذي ظنه وسيلة لحماية غرناطة من مصيرها المحتوم، أو على الأقل، تأجيل الواقعة بضع سنين على أمل أن تتغير الأحوال، وتتبدل الظروف.

218

السلطان (أبو عبد الله) المخدوع وسط الخيانات

3.2

لكن (أبا عبد الله) كان فعلاً المقدمة الضرورية لسقوط المعقل الأخير للمسلمين في إسبانيا، 9 حيث تبدلت الظروف.. ولكن لصالح الإسبان. فمعاقلة عمه (الزغل) تهاجم من جديد ويضطر إلى توقيع اتفاق أسوأ من اتفاق "" مع الملكين. ثم يجلو عن الأندلس إلى تلمسان. ويتنكر الإسبان فيما بعد لنصوص الاتفاق الذي أبرموه مع السلطان، ويحاصرون غرناطة حصاراً شديداً، فيضطر إلى عقد اتفاق آخر معهم بعد أن اكتشف خيانة كل من يحيطون به (ابن كماشة، والملاح، وكبار النقباء، والتجار وآخرون كثيرون...) وباستثناء الأم عائشة والزوجة وفرج البسطي وبعض خدمه المقربين لم يجد من يناصره... وأخيراً اتفق على أن يترك غرناطة مقابل ضمان حقوق المسلمين فيها.

صورة الملك المستسلم بلا كرامة و المطرود

4.2

6 في لغة المغاربة الفتى الغضب الشباب

اتباع فرديناند طريقة عبد الرحمان الناصر في حصار طليطلة فحاصر غرناطة حيث بنى مدينة أمامها سماها (شنتقي) أو الإيمان المقدس 7 ويقوم إلى الآن تذكاري لهذا الحصار، الذي سبب المجاعة في غرناطة وادى إلى استسلامها للقشتاليين.

- أنظر كتاب ستانلي لين بول، قصة العرب في إسبانيا، ترجمة علي الجارم، ط1 - 2016/ ص 172.

بعد ارتحاله بأيام قلائل خرج أهل غرناطة مع أميرهم محمد بن علي إلى قرية البذول، وقاتلوا من بها من النصارى والمتردين حتى فتحها 8 الله تعالى ودخلوها عنوة، وفتح الله ذلك الإقليم كله ودخل في دمة المسلمين فرجه أهل غرناطة إلى بلادهم مستبشرين بنصر الله تعالى.

- أنظر كتاب الأمير شكين ارس لان، في تعريب وقائع آخر بني السراج (للفيكونت شاتوبريان)، وفي تحقيق أخبار العصر في

انقضاء دولة بني نصر، لمؤلف مجهول، الدار التقدمية، ط1/ لبنان، 2009 ص 119

يزعم المنجمون أنهم تكهنوا بسقوط مملكة غرناطة ستكون في عهد أب عبد الله، يشير أغلب المؤرخون إلى وصفه بأنه كثير التردد شديد الوسواس والتطير، وزاده خيالاً أن استقر في نفسه سوء طالع ونحس نجمه وعرف الناس فيه ذلك فنيزوه (بالشقيف) أي الشقي وبالعربي، وكثيراً ما كان يقول وهو يرى أماله تبيض رمادا: لقد كتب في لوح القدر أن أكون مشؤوم الطالع وأن يكون زوال هذه المملكة على يدي.

- أنظر كتاب ستانلي لين بول، قصة العرب في إسبانيا، ترجمة علي الجارم، ط1 - 2016/ ص 163.

(كما قدمه أنطونيو غالبا في روايته المخطوط القرمزي)

يروى لنا السارد ، كيف غادر (أبو عبد الله) غرناطة وسلم مفاتيح " قصر الحمراء "، ثم إقامته لمدة لا تزيد على العامين في (أندراش) ؛ حيث الشروط تسمح له باتخاذ الضياع ومواصلة حياته اليومية بكرامة. ولكن أين هي الكرامة، وقد ملأ النصراري قصره بالجواسيس؟.. منهم من دس له السم في طعامه، ومنهم من حاول اغتياله بسهم طائش. وظلت الاتصالات بينه وبين الملكين متوترة، فهم يسامونه على بيع أملاكه في غرناطة. ويمنعونه من الحركة والتنقل بين المدن إلا إذا كان يريد السفر إلى إفريقية، وفي نهاية إقامته باندراش يفقد زوجته (مريمة) في أثناء الولادة، حدث يختزل نهاية ولادة حلم استعادة الأندلس في نظر وكل سكان غرناطة .

بعد ذلك ، يوافق على الانتقال إلى (المغرب) ، ويذكر مراسلاته مع سلطانها الوطاسي، وكيفية حلوله فيها مقارناً بين غرناطة وفاس. وفي فاس، يواصل حياته مواطناً عادياً تسكنه هواجس أجداده الملوك الذين صنعوا من الأندلس خلال قرنين ونصف من الزمان أجمل ممالك التاريخ. في فاس يتعرف على (أمين وأمينه) وهما توأمين لأب وأم غرناطيين توفي بعد وصولهما لفاس، وفيهما سيجد ما يعوضه عن زوجته وعن ابنته وعن أهله وذويه.

وتنتهي الرواية ب وفاة السلطانة السابقة عائشة، والذي يقارب الستين ينتظر الموت، الذي خانته مثلما خانته الكثيرون؛ فقد نفرت عنه السيوف، وتفاداه الأعداء. فالموت لا يأتي في المواعيد التي يحددها السلطان ، بل في الساعة التي هي مشيئة الحي القيوم ذي الأسماء الحسنى، والسلطان الأقوى.

3. أنطونيو غالبا باعتباره المؤلف الضمني (السلطان) في رواية المخطوط القرمزي :

سبق الذكر أن السارد الذي هو المؤلف الضمني للرواية، قد كان حريصاً على تذكيرنا بهذا الواقع، ولهذا كنت حرصاً أيضاً على فك شفرة الكتابة لديه. فكلما كاد زمام الحكاية ينفلت مني، وأظن نفسي قد خضعت لخيالات (أنطونيو غالبا) ، عاجلني المؤلف الضمني، بما يذكرني بحقيقة أنه هو الذي يحكي الوقائع ويروي الحوادث ويحللها، ويفسرها، تحليل من هو متورط فيها، وتفسير من يراها عن كثب.¹⁰

صورة السلطان المنهزم المتأمل و الحذر من الحقيقة

1.3

يقول لنا في بداية يومياته "الرواية" إنه يعيد النظر في مذكراته، وأن أكثر الشخصيات باستثناء (أمين وأمينه) قد ماتوا، وأنه يهدي هذا المخطوط القرمزي إلى ولديه أحمد ويوسف اللذين لا يعرف مصيرهما ولا في أي جزء من المنفى الكبير هما.

219

وفي موقع ثان يخبرنا أنه "يعيد تحرير شهادته لتكون مرتبة ترتيباً أفضل لكن الوقت لا يسمح له بذلك" .. وفي تقديمه لشخصيات الرواية يلجأ إلى أسلوب مؤلف المذكرات ،حين يقدم لنا الناس الذين عرفهم وكانوا أصحاب أثر طيب أو سيئ فيه، يقدم لنا مرضعته (صُبْح)، والزنجي (مولي)، والخصي (نسيم) الذي خدم أكثر ملوك بني نصر وظل إلى آخر لحظة في (الحمراء) ؛ حيث سلمت مفاتيحها للملكين، ويوسف الذي كني هو الآخر ب(أبي عبد الله) .

وكعادة كاتب اليوميات يحاول هنا، أن يعتصر ذاكرته ليحدد الزمن الذي وقع فيه الحدث يقول:"ما سأكتبه الآن حدث بعد يومين. أكاد أكون متأكداً أنه ليس تخيلاً وإنما حدث تماماً كما أرويه"11... ولا يخفى أن بعض من يكتبون سيرهم الذاتية يترددون أمام التصريح ببعض الأحداث والحقائق. فيجد المؤلف نفسه فريسة لرغبتين متناقضتين. إحداها تدعوه إلى البوح والأخرى تدعوه إلى الكتمان. وهنا، وكأي مؤلف ضمني يحاول إقناعنا بأنه مؤلف حقيقي لا يتجاوز ذكر الأشياء مثلما حدث فعلاً دون زيادة أو نقصان. يقول:"كنت قررت السكوت عن شيء عندما بدأت كتابة هذه الأوراق، وإذا ما كان مرادي أن أخالف الكذب الغريب، فإن عليّ أن أقول الحقيقة فيما يتعلق بي"12... وزيادة على ذلك نجد الراوي يتوقف أمام سيرته الذاتية فيحاسب نفسه على ما كتب وعلى ما لم يكتب. فهو "مر ما يقرب من عام على آخر مرة كتبت... يخبرنا - مثلاً - أنه مر عام كامل دون أن يضيف إلى يومياته شيئاً فيها على هذه الأوراق القرمزية، عام كثيف وحاسم، بدل، على هواه، مواقف جلّ الشخصيات في هذه القصة!

إن ما نقوم به، هو تلخيص لأبرز حوادث الرواية التي تقع في نيف وخمسمائة صفحة ، وهو تلخيص أشبه ما يكون بمحاولة¹⁰ إقحام الفيل الضخم في "سمّ الخياط"،فالتفاصيل التي تكمن وراء كل حدث هي من التنوع والكثرة والدقة؛ بحيث تستعصي على أي تلخيص، كما أن الصور التي قدمها المؤلف عن (أبي عبد الله)، من الغنى بحيث تحتاج دراسات معمقة لها.

Elmanuscrito Carmesi أنطونيو غالبا، المخطوط القرمزي، ترجمة رفعت عطفة، دمشق، ط2، 1998 ص114 والعنوان الأصلي للكتاب 11

المصدر السابق ص12134

(كما قدمه أنطونيو غالا في روايته المخطوط القرمزي)

صورة الكاتب الموضوعي للأحداث

2.3

ثم يضيف في الصفحة نفسها "أكتب في مساء يوم 20 نيسان (أبريل) 1483"، وهذا التاريخ، بالذات، يعدّ تاريخاً مهماً في حياة (البطل المؤلف)؛ ففي ذلك اليوم قام بحركته الانقلابية ضد أبيه السلطان وشقّ طريقه من ربض "البيازين" 13 إلى قصر الحمراء. وفي مساء ذلك اليوم جاء ممثلوا المدن والقرى "واعترفوا بي، وكرموني، أهداني حاكم وادي آش ثياباً فاخرة شبيهة بتلك التي رأيتها ذات يوم بين كنوز غرناطة" 14..

والراوي هنا، لضلوعه في عملية الكتابة، ودوره في الحوادث، يتحرى الدقة في المعلومات، ويسعى للتحقق من صحتها، فلا يرسل الأخبار فيها إرسالاً وإنما "يراجع، بدقة، الوثائق التي وصلت إليه، ويقابل بينها، ويضيف ما سمعه في طفولته إلى ما يوحى له به تفكيره، وتمليه عليه تجربته القصيرة " 15.. ثم يقول: " عملت ساعات كثيرة - مساءات وصباحات بكاملها - في تحرير تاريخ السلالة " 16 وهذه الصفة التي يتصف بها تعطي روايته للحوادث، وتعليقاته عليها وتفسيره لبعضها مصداقية أكبر، وتجعل حضور المؤلف الحقيقي، أنطونيو غالا، حضوراً خفياً لا يكاد يُلاحظ.

صورة السلطان المهمش أمام نفسه والناس

3.3

والكتابة على مراحل، تتخللها مدة انقطاع من حين إلى آخر تصفي أيضاً على السيرة طابعاً أكثر دقة، لأن الكاتب يجد مُتَسَعاً من الوقت لمراجعة ما كتب. ولهذا يلج (أبو عبد الله) على هذه الفكرة، فيخبرنا في أحد المواقع أن سنوات مضت توقف فيها عن الكتابة في هاتيك الأوراق، وأصبح لديه [الآن] متسع من الوقت للعودة إليها" 17. وبهذه الإشارة لا يكتفي المؤلف الضمني بالإلحاح على حقيقة المحتوى، بل يضعه في الموضع الذي أراده من التسلسل الزمني لبنية (الحكي). ففي عبارته السابقة وضعنا بين مفصلين من مفاصل الزمن، مما يسبق العودة إلى الأوراق سأحاول طالما أنني أستطيع ذلك... وما يتبعه، ونقارن ذلك بقوله: "ما جرى في الأشهر اللاحقة ليس عملاً بسيطاً الآن أن أنسى نفسي.. ويقول كذلك" سأحاول أن أبقى على الهامش رغم أنني كنت دائماً على الهامش" 18. لقد تمنى (الموت مراراً في هذه الرواية يقول: لا أعرف من جرحني ولا ما إذا جرحته... كان بودي لو تعثرت ب(غوثالو القرطبي)، وليكن هو على الأقل من.. لكن الأمر قد صار سيان. كائن من كان. إلى الأمام فوجئت أنني أقول وداعاً بصوت عال " 19 لكنه لم يمت وسقط في الأسر ليزوق مرارة الذل والهوان.

220

4. هل التنظيم الكرونولوجي لصور حياة أبي عبد الله من صنعه أم من صنع أنطونيو غالا (الكاتب)؟

وفي العبارة الأخيرة، يصيب المؤلف أنطونيو غالا عصفورين بحجر، فهو يرتب الأحداث على نحو يجعل القارئ واعياً بالتسلسل الزمني لها، مع أنه في البداية، أوحى إلينا بأن النص كان قد اكتمل وأضيفت له المقدمة والملاحظة الختامية.

لكنه هنا يعيدنا إلى زمن الكتابة المصاحب لزمن وقوع الحوادث، وهو من جهة أخرى وعلى لسان الراوي/ السارد للمذكرات، يحاول أن يستبعد التأثير الشخصي الذاتي للمؤلف الضمني في ترتيب الأحداث وتفسيرها أو التعليق عليها. فهو بكلمة أدق يريد إقناعنا أكثر مما اقتنعنا بأن المؤلف الضمني صادق فيما يكتب وصدقه هذا يدفعه إلى تجاهل وجوده هو عندما يتعلق الأمر بأشخاص آخرين. "كما سأحاول جرد الأحداث بطريقة منتظمة. هذا إذا كان من الممكن تعداد الفوضى بانتظام ودون تزوير" 20، وهو بهذا التعهد الذي يقطعه على نفسه يقترح المستحيل، فما حدث لم يكن إلا فوضى، وتحويل الفوضى إلى ترتيب وتنظيم لا يخلو من إعادة نظر قد تقترب من التشويه أو التزييف. لكن أبا عبد الله هنا يعترف بأنه غير قادر على ترتيب ما حدث؛ ولذا فإن صخب الأحداث يصاحب القلق الذي يساوره، وعندما يقول لنا في أحد المواضع: " هنا.. كتبت هذه الأوراق الأخيرة". فإنه يقصد "أندراش" التي

ربض متسع إلى شمال غرناطة يبلغ نحو ربع مدينة وكان يقيم به معلوما البراة الصيد. 13.

المصدر السابق ص 14162

المصدر السابق ص 15213

نفسه، ص 16213

نفسه، ص 17287

نفسه، السابق ص 18345

نفسه، ص 19344

لمصدر السابق ص 20346

(كما قدمه أنطونيو غالا في روايته المخطوط القرمزي)

قضى فيها آخر أيامه قبل الانتقال ... أي أن اليوميات، كتبت أيضاً في المكان الذي شهد أيامه الأخيرة، فهو كتب بعضها في "البيازين" وبعضها الآخر في "الأسر" وبعضها في الحمراء، وبعضها في "أندراش" وبعضها في "فاس" عاصمة الوطاسيين.

5. الملك المنفى يدخل حالة اليأس:

ولم يرغب عن بال الكاتب، أن يذكر لنا تجسس أعدائه على يومياته، وعلى "مخطوطه القرمزي" .. وهو في "أندراش"، حيث يقول: "أشك بأنهم تجسسوا على هذه الأوراق القرمزية".²¹..

وفي ثورة انفعال بعد موت فرج الخادم والصدیق، يقول " لقد انهيار العالم . مات فرج منذ أسبوع²²..ولذلك يتمنى الموت مجدداً " برقد الآن في الحديقة التي كان على جسدي أن يدشنها ".²³ يحاول الكاتب أن يحرق "مخطوطه القرمزي"²⁴، وعندما لم تسمح له (مريمة)، بذلك يمتنع عن الكتابة أو النظر فيها مدة أشهر ثلاثة ثم يعود إليها ويجمعها.. " كما لو كانت تحكي عن شخص مختلف، وربما ميت"²⁵.. وفوق كل الذي تقدم من إيضاحات لصلة الملك بهذه اليوميات، جاء في آخر النص ببعض مقتطفات مسجوعة من كتابه الذي أرسله إلى أمير فاس الموسوم بـ "الروض العاطر الأنفاس"، وهو الجزء الذي أذن بمغيب نجم الأندلس، وانتقال السلطان الأخير إلى المغرب. ولا ينسى المؤلف الضمني التذكير بوفاة عم السلطان "الزغل" في تلمسان وقبره، ووفاة أمه في فاس، وكانت تنظر إليه نظرة احتقار، إضافة إلى وصفه للتباين الكبير بين فاس مقارنة بـ **غرناطة**. وذكرياته مع أمين وأمينه..

6. الختم .. المخطوك القرمزي، إنصاف لسلطان مظلوم

إن الحديث باسم (أبي عبد الله) تقنية سردية جنببت (غالاً) مغبة العرض أو وضعه في دائرة الاتهام أو التحيز. ذلك أن صياغة التاريخ تتحكم بها مفردات يفرضها العرف السائد لدى كاتب ذلك التاريخ، وهو على كل ليس مؤرخاً رسمياً ينطق باسم مملكة غرناطة، ولا يريد أن يكون مؤرخاً منحازاً إلى إحدى الفئتين.

لقد شاعت الأقدار والظروف أن تلقي على (أبي عبد الله)، مسؤولية ضياع غرناطة، لكن (غالاً) ينصفه في روايته هاته، لأنه أقنعنا بأن الأندلس كانت قد ضاعت من زمان وعندما أجبرته أمه بتحريضها العنيد ضد الضرّة (الثريا) وولديها على الاستيلاء على العرش، كان في الحقيقة يرغب في التنازل عنه لعمه الزغل، لأنه لم يكن يجد نفسه أميراً ولا يرى لديه الكفاية للملك، وكم من مرة حدثنا في هذا السياق برغبته في التنازل لعمه، حتى بعد أن حدث ما حدث، لكن هذا الأخير كان منشغلاً عن هذا الموضوع، ولا يفكر إلا بالتغلب على أعدائه الداخليين وعلى النصارى الذين يهاجمون رقعة مملكته من الخارج.

في الكثير من الأحيان نجد صاحب هذه اليوميات يشير إلى الفساد الذي استشرى في صفوف مملكة آبائه وأجداده، وإلى تحكم النساء في مقاليد الحكم وإدارة المملكة تحكماً كبيراً، وإلى دور الخلافات العائلية وخيانات

(كما قدمه أنطونيو غالاً في روايته المخطوط القرمزي)

الوزراء²⁶ من أسرة (بني سراج)²⁷ وغيرهم، وتعاملهم مع الإسبان وتدبير الاتفاقيات والمؤامرات، بما يثبت لنا - نحن الذين نقرأ النص- أن سقوط مملكة غرناطة تم قبل اعتلاء (أبي عبد الله) العرش، وقبل توقيع الاتفاق - اتفاق الإذعان في كانون الثاني من عام 1492. وهو في الوقت ذاته منح المؤلف الحقيقي (أنطونيو غالاً)، فرصة الحياذ في هذا العمل الأدبي، فعن طريق الكاتب الضمني استطاع أن يوجه نقداً لاذعاً بل تهجماً شديداً لأولئك الذين أحبطوا ذلك المشروع الثقافي المسمى الأندلس، لأغراض لا تتعدى في أحسن الأحوال التعصب الديني المقيت والزائف. يوميات أبي عبد الله، تبين كيف أن الملوك الإسبان في الحرب التي خاضوها "تحت راية الصليب" و"الإيمان المقدس"، كانوا في أكثر الأحوال مرتشين وخونة ولا يفون بالعهود ولا ينفذون المعاهدات، ولا يراعون عرفاً ولا ذمة في الحرب. 28 كما كانوا يسرقون الأموال من أصحابها جهراً بقوانين لا تتفق مع أي دين، وبالرغم من **إدعاء الكتلة**²⁹ - في نظر المؤلف - عند كل من ملك أرغون ومملكة قشتالة، فهي لم تكن ثمة صفة أخلاقية خاصة حين معاملتهم للمسلمين بأسوء معاملة. وأما تنكر الملكين للاتفاقيات فقد صورته المؤلف أبشع صورة وأدانته أقصى إدانة، **Implied author**³⁰ وهذه نظرة إنصاف ما كان ليستطيع تقديمها في عمله هذا، لولا أن تقنية الكاتب الضمني هي التي وفرت له مثل هذا الهامش الواسع الذي كفل له حرية التعبير بصراحة ووضوح.

انطلاقاً من هذه المعطيات قرّر غالاً الكتابة عن هذه الشخصية التاريخية، صرح غالاً الكثير من الصور النمطية عن الملك أبو عبد الله، فهو مخطئ لكنه ليس المخطئ الوحيد.

كان الوزير في مملكة غرناطة ذا مكانة عالية وصاحب نفوذ ولديه صلاحيات مهمة، إذ أخذ بنوي عن السلطان في حالة غيابه وريم سياسة الدولة الداخلية والخارجية، كما اتخذ بعضهم ألقاب (ك) الرئيس وعماد الدولة مثل الوزير محمد بن الحكيم الرندي 708 هـ / 1309 م، وزير السلطان عبد الله محمد بن يوسف الفقيه 708 هـ / 701 هـ / 1302 م 1309 م، ولقب ذي الوزارتين الذي حملة لسان الدين بن الخطيب وزير السلطان الغني بالله محمد 5 حكم بين 755 هـ / 7620 هـ / 1354 م. المؤلف، الدكتور كمال السيد أبو مصطفى الناشر، مركز تاريخ وحضارة المغرب والأندلس في انظر بهذ الخصوص كتاب دراسات 2017 ط 1 ص 266/265. الإسكندرية للكتاب، الإسكندرية سنة النشر وكذلك كتاب: عنان، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتتصرين، ص 244 وكتاب عبد العزيز سالم (في تاريخ وحضارة الإسلام، وكتاب محمد كمال شبانة (يوسف الأول ابن الأحمر سلطان غرناطة)، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية للطباعة، 2004، ص 51. في القرن الخامس عشر. برز جدهم يوسف بنو الأحمر بنو السراج عائلة غرناطية يروى عنها أنها نالت منصب مهم في دولة 2727 السراج شيخ القبيلة في عهد محمد الثاني ملك غرناطة الملقب بالمستعين وقد ساعد ابن السراج هذا الملك في استرداد ملكه الذي حرم منه ثلاث مرات، يرجع أصلهم إلى كلاب بن ربيعة، وهم ينتسبون إلى سراج بن قرة الكلابي صاحب الرسول صلى الله عليه وسلم ودخلوا في المؤلف، الدكتور كمال تاريخ وحضارة المغرب والأندلس في ولاء بني أمية فأصبحوا من الموالي المروانيين. (انظر كتاب دراسات 2017 ط 1 ص 267. السيد أبو مصطفى الناشر، مركز الإسكندرية للكتاب، الإسكندرية، سنة النشر

لا يعرف الكثيرون عن بني السراج ويقال أنهم قدموا الأندلس في القرن الثامن الميلادي، وقد عرفهم الكثيرون لمقتلهم حين جمعهم الملك في ساحة أطلق عليها اسمهم بعد أن شهدوا مقتلهم فيها وكان السبب أن أحدهم أحب فتاة من الأسرة المالكة الذي حاول تسليق النافذة التي تطل منها الأميرة. لا زالت ساحة أوبرا بني السراج أجمل وأروع مع أنها شهدت قصة فظيعة. القصة لم يذكرها رجال التاريخ فلذلك يملأها الشك من كل جانب.

فيحرقون الزروع ويقتلعون الأشجار المثمرة ويقتلون البهائم والأغنام ولا يراعون حرية العبادة، فيحولون المسجد كنيسة ويجبرون 28 الناس على التنصر بالإكراه.

- أضيف إلى ذلك أن الإسبان خبروا اليهود الذين كانوا يعيشون في الأندلس بين التنصر والذهاب إلى إفريقيا، وأن يأخذوا معهم أموالهم باستثناء الذهب والفضة والنقود فكيف يمكن أن يأخذوا بيوتهم وأثاثهم ودوابهم ومتاجرهم إذا لم يسمح لهم ببيعها وأخذ أثمانها؟

الكتلة catholicism²⁹

- اعتناق الكاثوليكية act of becoming a catholic.

- فعل اعتقاد بالكنيسة التي تعتبر البابا رثيا لها act of believing in the Church that has the Pope as its chief.

الكاثوليكية هي تقاليد ومعتقدات الكنائس الكاثوليكية. إنه يشير إلى اللاهوت والليتورجيا والأخلاق والروحانية. مصطلح يشير عادة إلى الكنائس، سواء الغربية والشرقية، التي هي في تكامل مع كاملة الكرسي الرسولي، لكنيسة الكاثوليكية هي أهم وأقدم أشكال المسيحية.

³⁰ لكن في الخيال الحديث غالباً ما يختار العرض (طريقة دراماتيكية خالية من التفسير التأويلي)، يتبنى موقفاً موضوعياً (أي اللامبالاة العاطفية، عدم الالتزام الأيديولوجي والحياد تجاه الشخصيات)، أو يقدم شخصية خاطئة، رؤيتها الخاطئة للعالم يجعل

- Wayne C. Booth, Rhetoric of Fiction, idem.

(كما قدمه أنطونيو غالّا في روايته المخطوط القرمزي)

من الخلاصات الهامة لهذه الدراسة، أن رواية (المخطوط القرمزي) لـ (أنطونيو غالّا)، أبرزت التأثير العربي والإسلامي في مختلف الحياة الإسبانية، فهو استهدف إظهار ما ظل مخفياً قصداً أو عن غير قصد، وتفنيد كل ما قيل عن الفترة الإسلامية من ترهات، فهو يرى أن العنصرية لا تعني جهل أو إغفال دور الأجناس الأخرى المختلفة، بل إن العنصرية هي القول إن جنسه أو عرقه هو أسوأ وأرقى من الآخر. فتعرض محنة المورسكيين في إسبانيا، مؤكداً أنهم كانوا يفوقون المسيحيين ثقافة وعلماً ومعرفة وتكويناً، حين كان هؤلاء المسيحيون، أميل إلى الكسل والتواكل، وكان كل همهم هو القيام بغزوات وغارات على الممالك العربية أو التهجم على الجماعات اليهودية، ثم جاء الاكتشاف بعد أن خلد الأبطال المسلمون المتعبون إلى الراحة جرّاء ثمانية قرون من الصراع 31 والمكابدة.

ولعل من مفارقات الزمان ، أن نهاية الإسلام في الأندلس كانت بداية عالم جديد هو (أمريكا)، حيث أتى "المخطوط القرمزي" لإزاحة الستار عن الوجه المروّع الأسود لما يسمّى بالذكرى الخمسمائة لاكتشاف أمريكا. أضف إلى هذا فرواية "غالّا" ، لم تأت لتعبر عن أفول مملكة النصريين في الأندلس فحسب، بل هي نعي للتعاشيش والحب والتنوع في كل إسبانيا.

و الخلاصة التي تبدو لي مناسبة في نهاية هذا المقال هو قول انطونيو غالّا : " أن الإسلام هو نحن، ولا يمكن أن نسير في اتجاه معاكس لما هو بداخلنا، فإسبانيا بدون إسلام لا يمكن فهمها، كما لا يمكن فهم لغتها، لأن اللغة الإسبانية هي عملياً لغتان أي أنها لغة مزدوجة اللسان فهي لاتينية وعربية أيضاً. "

المصادر والمراجع:

- أنطونيو غالّا، المخطوط القرمزي، ترجمة رفعت عطفة، دمشق، ط2، 1998 والعنوان الأصلي للكتاب *Elmanuscrito Carmesi* كم رجعت إلى طبعة 1990 من رواية المخطوط القرمزي .
- أمين معلوف (ليون الإفريقي) ترجمة عفيف دمشقية، بيروت 1996 .
- إبراهيم ببيضون ، الدولة العربية في اسبانيا ، دار النهضة العربية، بيروت، ط 1980 .
- إبراهيم السعافين، تحولات السرد، دار الشروق، عمان 1996 وعبد الواحد لؤلؤة شواطئ الضياع، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1999 .
- الأمير شكيب ارسلان ، في تعريب وقائع آخر بني السراج (الفيكونت شاتوبريان) ، وفيه تحقيق أخبار العصر في انقضاء دولة بني نثر لمؤلف مجهول ، الدار التقدمية، ط1، لبنان ، 2009 .

يشير معلوف إلى حالة من الصراع بين فئتين من النخبة الغرناطية فئة المتدينين المتزمتين وعلى رأسهم الفقيه (استغفر الله) شعارهم³¹ التمسك بالعقيدة السلفية إلى حد تغيب العقل ، وبين فئة المفتحين عقلا والمنحرفين سلوكا وعلى رأسهم الطبيب (أبو خمر) . الاثنان لا يشك في وطنيتهما، لكنهما لا يجديان نفعا للوضع الذي أصبحت تعيشه غرناطة من انحلال سياسي . الأولون يفسرون ما وقع تفسيراً غيبياً ، والآخرين يفتكون مدفعا من العدو لكن لا يحسنون استعماله ...
إن أمين معلوف يرى أن تضافر القوى الروحية (الفقهاء) والعقلية (العلماء) والزمينية (السلطان) هي ما أدى السقوط غرناطة .
- أنظر أمين معلوف (ليون الإفريقي) ترجمة عفيف دمشقية، بيروت 1996 ، ص 47 .
- قصر الحمراء ذاكرة الأندلس، تقديم عثمان الرواف ، إشراف عبد الواحد أكميز ، منشورات مركز دراسات الأندلس وحوار الحضارات ، ط 1، 2015

صورة العربي في الأدب الأندلسي/ صورة آخر ملوك غرناطة
1487-1492 محمد الثاني عشر (أبو عبد الله)

(كما قدمه أنطونيو غالافيا في روايته المخطوط القرمزي)

- باربارا فوكس، ترجمة ليلى جلال رزق (المحاكاة والإمبراطورية)، المركز القومي للترجمة، ط1، 2006.
- ألفريد البستاني، نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر، مكتبة الثقافة الدينية، ط1، 2002
- كمال السيد أبو مصطفى، كتاب دراسات في تاريخ وحضارة المغرب والأندلس ، مركز الإسكندرية للكتاب، الإسكندرية سنة النشر: 2017 ط 1.
- محمد كمال شبانة (يوسف الأول ابن الأحمر سلطان غرناطة) ، القاهرة ، مكتبة الثقافة الدينية للطباعة، 2004 .
- محمد عبد الله عنان ، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتتصرين ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة 1966 .
- محمد عبده حتاملة، محنة مسلمي الأندلس، مطابع دار الشعب، عمان، 1977.
- محمد بن شريفة، البسطي آخر شعراء الأندلس ، دار الغرب الإسلامي ط 1985 .
- عبد العاطي محمد الورفلي ، أوراق أندلسية ، ط1990 دار الكتب الوطنية بنغازي .
- عثمان الرواف، إشراف عبد الواحد أكمير، قصر الحمراء ذاكرة الأندلس، منشورات مركز دراسات الأندلس وحوار الحضارات ، ط 1، 2015
- مصطفى الشكعة، الأدب الأندلسي، موضوعاته وفنونه ، دار العلم للملايين، بيروت ط 4 ، 1979 .
- ستانلي لين بول ، قصة العرب في اسبانيا ، ترجمة علي الجارم ، ط1، 2016.
- سالم، السيد عبد العزيز (في تاريخ وحضارة الإسلام) ، مؤسسة شباب الجامعة 1985.
- سعيد يقطين في الرواية والتراث السردى المركز الثقافى العربى، الدار البيضاء وبيروت، 1992.
- ياقوت الحموي، معجم البلدان ، منشورات دار صادر، بيروت 1979 ص 262 .
- W.M.WATT ,A. history of Islamic Spain, Edinburg 1965
- <https://www.alhambradegranada.org>